

- شيخُ في ضائقة، قد توسَّمَ فيَّ مروءة، هل أُخْلِفَ ظَنُّهُ؟
- ولكن الروم أهلُ غدرٍ يا عتيبة!
- ما كان يجملُ بي غيرها.
- وإذا لم يُعدْ كفيك يا أبله؟
- يصنع الأميرُ في أمري ما يبدو له.
- ولكن الأميرُ مَغِيظٌ مُحَنَّقٌ، قد استلَّ غدرُ الروم ما كان في نفسه من خلال العفو والرحمة.

- يقتلني به إذن.
 - وتبيعُ رأسك برأس كافر؟
 - قد كان ما لا سبيلَ إلى الرجوع فيه.
- وتفرَّقَ الجُندُ عن أصحابهم محزونين، وأوى عتيبةُ إلى خيمته، قد امتلأت نفسه غمًا وضاق بكلِّ ما حوله، هذه أولُ غزاةٍ يغزوها، ولعلها آخرُ غزاةٍ، فإن الموت يتربَّصُ به، وسيموتُ حين يموتُ لا شهيداً في المعركة، ولا مبكياً عليه، وتترقَّبُ نوارُ حتى يعود كلُّ الغزاة، ولا يعود عتيبة فتبكيه دهرًا ثم تسلو، وتبكيه أمه كذلك، ولكنها لا تسلو أبدًا، إنَّ الأمهات لا يَنسينَ من يموت من أبنائهن، قد علم ذلك عن جدته الثكلى، إنها ما تزال تذكر عمه عتبة وأباه النعمان كأنما فقدتهما منذ قريب.

ما لهذه الخواطر تتزاحم في رأسه الساعة؟ أميَّتُ هو إذن؟ فلماذا رمى بنفسه في هذا المأزق؟ ولكنه لا يكاد يستشعر شيئاً من الندم لشيء مما كان، فما كان له خيرة، أكان يجمل به أن يقول على ملاٍّ من الجند لذلك الشيخ: دعني فلسْتُ من المروءة بحيث ظننت؟ وإنَّ في الأمر - إلى ذلك - احتمالاً آخر؟ أليس ممكناً أن يكون ذلك الشيخ صادقاً فيما وعد؟ فكيف يحولُ حبُّ الحياة ولؤم الطبع دون إطلاق أسيرين مسلمين؟ ... وارتدَّ خاطره إلى أمه وإلى صاحبتة؛ كيف يعود إلى نوار ولم يف لها بما وعد؟ يا لها من سخرية أليمة! إنه بدل أن يعود إليها برأسٍ بطريق قد قدَّم رأسه فداءً لرأس شيخ حُطَمَة، لا هو من البطارقة ولا من السوق، أكانت أمه تتوقع أن يصير إلى هذه الخاتمة حين حاولت أن تردَّه فعصاها؟ لقد وقع عتيبة في شرٍّ أفظع مما كانت تتوقع أمُّه أن يكون!

ومدَّ يده إلى جيبه فأخرج جوهرةً وقلادةً فتملأهما طويلاً، ثم بكى ... أتدفع هذه التميمة عنه شرًّا؟ يا لهؤلاء الأمهات! ما أضعفهن قلوباً وعقولاً!